خليل حاوي والانبعاث

الدكتور سهيل أدريس

حين أغمض خليل حاوي عينيه، ذلك الصباح من حزيران الذي اجتاح فيه الصهاينة عاصمة العرب بيروت، كان يدرك أنه خسر المعركة الكبرى التي كرَّس لها حياته: الحِداء للانبعاث القوميّ.

وفي ذلك، كان خليل نموذجاً للمثقف العربي المناضل الذي رأى أحلامه تنهار على بشاعة واقع كان يناضل أبداً دون تحقُّقه، ويرفض أن يستسلم له، لأن الكفاح في روحه ودمه، ولأنّ له بصراً «يرمق الأفق ويرجو رجعة الحُلْم العظيم» كما يقول في تلك القصيدة المبكرة التي نشرتها «الآداب» أول عام ١٩٥٤ تحت عنوان «في غيبة الحلم».

ومع الكوارث والنكسات التي عانتها الأمّة في تاريخها الحديث، كان حسّ خليل حاوي القوميّ يزداد عمقاً ورهافة. وفي قصيدته «آسيا بعد الجليد» التي نشرت في تشرين الثاني عام ١٩٥٦، عبّر عن معاناة الموت والبعث «بما هي أزمة ذاتٍ وحضارة وظاهرة كونية»، وأفاد من أسطورة الإلّه تموز وما ترمز إليه من غلبة الحياة والخِصْب على الموت والجفاف، ومن اسطورة العنقاء التي تموت ثم يلتهب رمادها فتعود ثانية إلى الحياة:

إن يكنْ ربّاه لا يُحيي عروقَ الميّتينا
غيرَ نار تلِدُ العنقاء
نار تتغذّى من رماد الموت فينا
فلنعانِ من جحيم النار
ما يمنحنا البعث اليقينا.

وفيما هو يستشرف الأفق، متابعةً لتحقيق ذلك الحلم العظيم، تنتابه المخاوف من المصير، ويُرهص بالكارثة التي تنتظر بلده لبنان في قصيدة «في بلادهم».. منذ أكثر من ربع قرن، صرخ خليل حاوي يحذّر من انهيار لبنان، وهو في كيمبردج يعاني شعور النبذ بعد العدوان الثلاثي على مصر:

سرت لا أدري إلى أين
ضباب موحل يُعمى مصابيح الدروب
وألوف الأعين الصمّاء لا تحكي
وتحكي: أنت منبوذ غريب
اصرخوا: إنك منبوذ غريب
أجهزوا، مُصّوا دمي
مزِّقوني بالنيوب
وغداً ينذكُّ لبنانُ
وينفى شعبُ لبنانَ
ويستعطي الشعوب!

ولكنه لا يكفر بالانبعاث، بل يؤمن عميقاً بأن الضحايا قادمون

«يحملون الزيت والغار المندّى والطيوب».

ويعود في كل عصر تَشتد فيه مخالب البرابرة ليفتدي الصغار، زنابق الفجر:

وفدى الزنبق في تلك الجباه
أتحدّى محنة الصلب
أعاني الموت في حب الحياة
(من قصيدة حب وجلجلة، آذار ٥٧).

وفي تلك المرحلة من المدّ القومي، يطلق قصيدته الذَّروة، قصيدة «الجسر» يغنّي فيها الزحف المقدّس:

يعبرون الجسر في الصبح خِفافاً
أضلعي امتدت لهم جسراً وطيد
من كهوف الشرق، من مستنقع الشرق
إلى الشرق الجديد
أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد

وفي «عودة إلى سدوم» (أيلول ٥٧) ينبثق حلم الانبعاث نفسُه، وقد بدأ القلق يغزوه:

أترى يولد من حبّي لأطفالي
وحبّي للحياة
فارسٌ يَمتَشِق البرقَ على الغول
على التنينّ، ماذا هل تعود المعجزات؟

وبالرغم من أن هذا القلق يطغى ويؤول إلى صرخة إدانة في قصيدة «المجوس في أوروبا» (تشرين الأول ٥٧):

نحن من بيروت مأساةٌ ولدنا
بوجوه وعقول مستعارة
تولد الفكرة في السوق بغيّاً
ثم تقضي العمر في لفق البكاره
اخلعوا هذي الوجوهَ المستعارة

فإن التفاؤل بتحقق الحلم يبقى هو الحادي الأكبر، كما يتجلى في قصيدة السندباد (كانون الثاني ٥٨):

سوف تَخضرُّ
غداً تخضرُّ في أعضاء طفل
عمرُه منكَ ومنّي
دمُنا في دمه
يسترجع الخِصب المغنّي
حُلْمه ذكرى لنا
رجعٌ لما كنّا وكان
ويمرّ العمر مهزوماً
ويعوي عند رجليه ورجلينا الزمان

ولكن هذا الوجدان المرهف الذي يعبّر عن وجدان الأمة، يبدأ بالتمزّق بحلول الهزائم والنكسات القومية، منذ الانفصال، الذي وُلدت بعده قصيدة «لعازر ٦٢»، حتى هزيمة ٦٧ التي ملأت النفوس يأساً وتشاؤماً عبّرت عنهما قصيدة «الأم الحزينة»:

ما لثقل العار
هل حُملْتُه وحدي
وهل وحدي تَرى كفّنتُ وجهي بالرماد؟
ليس في الأفق سوى صمت السؤال
عن حُماة القدس
والعار المغنّي خلف آثار النِّعال

وليس عجيباً أن ينهار مع انهيار الحلم الكبير إبداع خليل حاوي، كأنّ وسيلة التعبير عنده كانت تستمد طاقتها الإبداعية من عظمة الموضوع الذي يملأ عليه روحه ونفسه، فإذا القصيدة تجفّ بين يديه ويذهب نسغُها المحيي، حتى ذلك الصباح من حزيران الذي اجتاح فيه الصهاينة عاصمة العرب بيروت، فكسر الشاعر قلمه وآثرَ الصمت الأبديّ(*).

(*) ألقيت في احتفال أقامه اتحاد الكتاب اللبنانيين بمناسبة مرور خمسة أعوام على غياب الشاعر خليل حاوي.